منطلقات المثل الشعبي

قاسمي كاهنة*

الملخص

إن الأدب الشعبي علم مستقل بذاته ، يحتل مكانة هامة في الدراسات الفلكلورية لأنه موروث ثقافي لايمكن الاستغناء عن مظاهره ، وتعد الأمثال الشعبية أكثر أنواع الأدب الشعبي قدرة على حفظ وحمل وترجمة أفكار وذهنيات أفراد المجتمع ، وكذا عاداته وتقاليده وأعرافه ومعتقداته الإجتماعية ، بمعنى أنها تعد وعاء تصب فيه ثقافة المجتمع الذي أنتجها ، وحافظ عليها بالتداول والتناقل مشافهة ، جيلا بعد جيل. ومن خلال دراستي للمثل الشعبي الذي يمثل خلاصة تجارب الشعب ، وما يمر به من خبرات وإرهاصات في الحياة الاجتماعية.فهو بهذا يحتل مكانة بين أشكال الأدب الأخرى ، لأنه يتميز بخصائص ومزايا أهلته للشيوع والتداول بين الأوساط الشعبية ، كالإيجاز وهذا ما ساعده على التناقل، فهو يعبر عن واقع المجتمع ويرسي الأعراف والتقاليد ، ويمثل هذا الجانب أحد أهم الوظائف التي يقوم بها المثل ، إضافة إلى جملة أخرى من الوظائف التي يؤديها المثل ، كما أنه يقوم بدور هام في الحياة ، ويؤدي إلى أقوى أنواع التأثير على السلوك الإنساني.

ونظرا للمكانة التي يحملها المثل فقد سعى عدة أدباء إلى جمع هذا الموروث الثقافي في مصنفات ، أهمها مصنف ابن أبي شنب ، ومصنف قادة بوتارن ، ومصنف عبد الحميد بن هدوقة....

Abstract: Similarly popular platforms

The folk literature is an autonomous science.it is an important place in the folk studies because cultural heritage cannot do without dispensed with, and the most popular sayings are popular literature the ability to save and download and translate ideas and mentalities of community members, as well as customs and traditions, customs and social beliefs, in the sense that it is an incubator for the culture of the community which are produced and maintained by the trading and transmission orally, from generation to generation. Through my study of folk adage that represents the synthesis of the experiences of the people, and the experience and the harbingers of social life. it is in this place between other

forms of literature, for it has the features and benefits of having a common trading, as brief as this is what helped him transmission, it expresses the reality of society and establishes the norms and traditions, and this is one of the most important side of the posts, add to other functions performed equally, it also plays an important role in life, and leads to stronger types influence human behavior. Given the stature, several writers have sought to raise the

❖ . مقـدمة

يعـد الأدب الشـعبي علمـا مسـتقلا بذاتـه ، يحتـل مكانـة هامـة في الدراسـات الفلكلورية ، لأنه موروث ثقافي لا يمكن الاستغناء عن مظـاهره ، ويتضـمن الخطـاب الشفهي كموروث ثقافي ، أشكالا من التعبير الشفهي المتكامل ، الذي يشمل كـل مـن الحكاية والقصص والأغاني والألغاز ، الأساطير والأحاجي ، النكت والحكـم والبقالات والأمثال الشـعبية .والتعـرض لأحـد أشـكال التعـبير والخطـاب الشـفهي ، يقودنـا إلى استكشاف المظاهر والدلالات الثقافية والاجتماعيـة للمجتمـع ، بتناقضـاته وتعقيداتـه. فالأدب الشعبي هو الذاكرة الحية والمتحركة للشعب ، لأنه يتلقـى المخلفـات الثقافيـة شفهيا ، ويتداولها جيلا بعد جيل ، يحفظها في الذاكرة الجماعية ، وهذا هو السبب الذي ضمن خلودها بين فئات المجتمع ، فهو يعكس فلسفة وواقع المجتمع وثقافته الأصيلة ، باختلاف مستوياته الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها.

وتعد الأمثال الشعبية ، أحد أشكال الأدب الشعبي المتميزة عن باقي أشكال الأدب الشعبي الأخرى ، فهـي تحمـل في طياتهـا دلالات اجتماعيـة وثقافيـة عـن مظاهر الحياة العامة السائدة في المجتمـع ، إنهـا المـرآة العاكسـة لحالتـه ، فهـي تعكس فلسفة وحكمة الشعب النابعة من الواقع الاجتماعي.إن المثل الشعبي يعتـبر جزءا لا يتجزأ من التراث الشعبي الذي يتداوله ويحفظه أفراد المجتمع جيلا بعـد جيل عن طريق الرواية الشفوية ، ليـأتي المثـل الشـعبي بـذلك في مقدمـة أشـكال التعبير الأدبي المذكورة آنفا ، فهو أقدر أنواع الأدب الشـعبي علـى تصـوير الحيـاة الاجتماعية وما يدور فيها من علاقات وتعاملات وأحداث وغيرها.

أولا ـ مفهوم الأمثال

لقـد تنـاول بعض الأدباء الأمثال بالدراسة ، حيث أنهم أولــوها قسـطا وافـرا من اهتماماتهم ، ونذكر من بينهم: الميداني في كتابـه (مجمع الأمثال) ، وابن الأثـير في كتـابه(المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر) ، وأبـو هلال الحسن العسـكري في كتابـه (جمهرة الأمثال) ، وابن عبد ربـه في كتابـه (العقـد الفريـد) ، والمفضـل الضبي في (كتاب الأمثال) ، ولا تخلو المكتبات من قـواميس وكتــب ومصـاحف

تناولت المثل وأوضحت مغزاه.

1 ـ التعريف اللغوي للمثل: قال المبرد المثل الشعبي من الناحية اللغوية هو: « مأخوذ من المثال.وهو قول سائر يشبه حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه فقولهم مثل بين يديه إذا انتصب ، معناه أشبه الصورة المنتصبة وفلان أمثل من فلان أي أشبه بما له الفضل. والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل »(1).

ويقول الميداني أيضا في كتابه: « سميت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالا لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب »(2). وجاء في تعريف لغوي آخر أن « أصل المثل التماثل بين الشيئين في الكلام ، كقولهم : كما تدين تدان ، وهو مثل قولك: هذا مثل الشيء ومثله ، كما تقول: شبيهه وشبهه ، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا... »(3) .

ويقول أبو هلال العسكري في موضع آخر من كتابه: « والأمثال نوع من العلم منفرد بنفسه لا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه ، وبالغ في التماسه حتى أتقنه.وليس من حفظ صدرا من الغريب فقام بتفسير قصده وكشف أغراضه وخطبه قادرا على أن يقوم بشرح الأمثال والإبانة عن معانيها والإخبار عن المقاصد منها ، وإنما يحتاج في معرفتها مع العلم بالغريب إلى الوقوف على أصولها والإحاطة بأحاديثها ويكمل لذلك من اجتهد في الرواية وتقدم في الدراسة... »(4).« وأطلق لفظ(مثل) على العبارة الموجزة الأدبية وتتميز بأنها تدل على عقل واع وتأمل بعيد ، وصنعة ظاهرة في تنميق العبارة وتنسيقها »(5) .

هذه كلها تعاريف أومضامين تعني المماثلة والمشابهة بين شيئين ، وبذلك يصبح مثلا سائرا ، ثابتا ومتداولا ، فهو كجملة استعارية تعبر عن الموقف بطريقة تلميحية ، وهذا ما ساعده على الانتشار والشيوع بين الناس. ولكن رغم ذلك فالمثل ليس تعبيرا لغويا فحسب ، بل يحمل في مدلولاته الكثير من الصور التعبيرية ، التي يلجأ إليها الشعب في التعبير الصائب عما يختلج في حياتهم

(1) الميداني أبي فضل ، مجمع الأمثال ، منشورات دار مكتبة الحياة ـ لبنان ، مج 1 ، ط 2 ، د.ت ، ص13.
(2) المصدر نفسه ، ص14.
(3) العسكري أبي هلال ، جمهرة الأمثال ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، ج1، 1988 ، ص11.
(4) المصدر نفسه ، ص3 ـ 4.
(5) عابدين عبد المجيد ، الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ط1 ، 1957 ، ص14.

الاجتـماعية من إرهاصات وتناقضات.

2 ـ التعريف الاصطلاحي للمثل: نجد عدة تعاريف للمثل منها من أعطـى الأولوية أو غلب الجانب الأدبي على الجانب الاجتماعي ، وهناك من يقدم ويركز على شكل المثل وأسلوبيته.وابـن المقفع يرى أن الكلام إذا جاء علـى شـكل مثـل كان أحسن إلى السمع واخف على الحفظ ، حيث يقول : « إذا جعـل الكـلام مـثلا كان أوضح للمنطق وآنف للسمع وأوسع لشـعوب الحـديث »(1). و الشـيء نفسـه بالنسبة لابن عبد ربه الذي يركز أيضا على الخاصية الجمـالية فيقول: « والأمثال هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني ، والتي تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ونطق بها في كل زمان وعلى كـل لسـان ، فهـي أبقـى مـن الشـعر وأشـرف مـن الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ولا عم عمـومها حتى قيـل: أسير من مثل »(2).فهو هنا يؤكد على سعة استعمال المثل منذ القدم إلى الآن.أما المرزوقـي فيركـز علـى خاصية قصر المثل حيث يقول: « والمثل جملـة من القـول مقتضبة مـن أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه إلى كـل مـا يصح قصده بها ، من غـير تغيير ليلحقـوا في لفظهـا ، وعمـا يوجبـه الظـاهر إلى أشباهه مـن المعاني ، فلذلك تضرب ، وان جهـلت أسبـابها التي خرجت عنها »(3).

ويتميز المثـل بأنه عام وبسيط ، حيث يعرفه الفارابي في كتابه(ديوان الأدب) بقـول: « بأنه ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه وفي معنـاه ، حتـى ابتـذلوه فيمـا بينهم ، وفاهـوا به في السراء والضراء ، واستدروا به الممتنع من الـدر ، ووصـلوا بـه إلى المطالب القصية ، وتفرجوا به عـن الكرب والكربة ، وهـو مـن أبلـغ الحكمـة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة ، أو غير مبالغ في بلـوغ المدى في النفاسة »(4). ونقلا عن الميداني قال ابن السكيت : « المثـل لفظ يخـالف لفظ المضروب له ويوافق معناه ، معنى ذلك اللفظ شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره »(5). وقال أبو إسحاق إبراهيم النظام: « يجتمع في المثل أربـع لا تجتمـع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ،

(1) الميداني ، مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ص14.
(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ج3 ، 1402ه ـ 1982م ، ص63.
(3) السيوطي ، المزهر في علوم الأدب وأنواعها ، دار إحياء الكتب العربية ، ج1، ص486.
(4) الفارابي ، ديوان الأدب ، ج1 ، ص74.
(5) الميداني ، مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ص13.

فهو نهاية البلاغة »[1]. فهو هنا يعرف المثل عن طريق ذكر خصائصه فهي تتميز بالإيجاز في التعبير، والدقة في المعنى، وروعة الصورة البيانية.

وقد حاول الأستاذ التلي بن الشيخ تحديد مفهومه في العبارة التالية : « لمثل جملة أو جملتين تعتمد على السجع ، وتستهدف الحكمة والموعظة... ، إن و المثل الشعبي تقطير أو تلخيص لقصة أو حكاية ولا يمكن معرفته إلا بعد معرفة القصة أو الحكاية التي يعبر المثل عن مضمونها »[2].

ويعرف عز الدين جلاوجي المثل بقوله: « هو عبارة موجزة ، لطيفة اللفظ والمعنى ، يصدر عن عامة الشعب ، ليكون مرآة صادقة له ، يعبر عن مخزونه الحضاري ، وواقعه المعيش ، وآماله وتطلعاته المستقبلية ، وهو مرتبط غالبا بحكاية وقعت سواء عرفنا قائله أم جهلناهما »[3]. ويعرفه الدكتور رابح العوبي بأنه: « قول سائر أو مأثور ، فرضي أو خرافي ، يتميز بخصائص ومقومات ، فهو يدل في صميمه على ما يمثل به الشيء دون تغيير في المعنى ، مع مخالفة لفظه للفظ المضروب الذي قام مقامه على وجه تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله ، وهذا تشبيه بالمثال الذي يعمل عليه غيره »[4].

هذه تعاريف حتى وإن وصفت الدلائل الظاهرة للمثل الشعبي من الناحية الشكلية والأدبية ، إلا أن المثل لا يحقق هذا الغرض فقط ، وإنما يغوص في مدلولات سوسيو- تاريخية أعمق ، بل هو أداة تصف الواقع الاجتماعي في مراحله المتعاقبة ، وبذلك نجد تعاريف أخرى أعمق واشمل ، بل وأعم ، فمنها من ربطت بين الأمثال وبين عادات وتقاليد الشعب ، كما أنها لم تلغ الجانب الأدبي والشكلي ، لأن الجانب الأدبي والاجتماعي في تعريف المثل ، هما متكاملان لإظهار تعريف شامل للمثل الشعبي.

ومن بين التعاريف التي أعطت الأهمية للجانبين معا نجد تعريفا جاء به احمد أمين ، حيث يقول إن الأمثال الشعبية : « نوع من أنواع الأدب ، يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية ، ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم ، ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب »[5]. فهو ينظر إلى المثل

(1) المصدر نفسه ، ص14.
(2) ابن الشيخ التلي ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، الجزائر، 1990ص19.
(3) جلا وجي عز الدين ، الأمثال الشعبية الجزائرية بسطيف ، مديرية الثقافة بسطيف ، ص11.
(4) العوبي رابح ، المثل واللغز العاميان ، ط01 ، 2005 ، ص3 ـ 4.
(5) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، القاهرة، 1953 ، ص61.

على اعتبار مزاياه وصفاته ، كما نلاحظ أن هذا التعريف قد أبرز بكل وضوح الجانب الاجتماعي للمثل الشعبي، فهو« خلاصة تجارب كل قوم ، ومحصول خبرتهم ، وهو ضرب من ضروب التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية ، وهو بذلك يختلف عن الشعر الذي يعد الخيال عنصرا أساسيا فيه ، كما انه يتميز عن غيره من أنماط التعبير بالإيجاز ولطف الكناية وجمال البلاغة »(1). إذا فالمثل هو وليد البيئة التي أنتج فيها أول مرة ، ونتاج اجتماعي يشترك فيه كل أفراد المجتمع. كما أنه يبرز الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها ، والعالم الاجتماعي مثله مثل المؤرخ يستطيع أن يتعرف على العادات والتقاليد والأعراف التي تسود مجتمع الأمثال الشعبية ، لأنه كمادة تراثية يحمل في طياته أحداثا تاريخية واجتماعية هامة عن المجتمع الذي أنتجت فيه.فهو وليد هذه البيئة ووليد تجربته الطويلة ، تعكس ما يتصل بالحياة الاجتماعية من صراعات وتناقضات ، إنه يتصل بكل مناحي الحياة الإنسانية فتراه يعالج« الأخلاق والحكمة والتربية والتوجيه ، والسخرية والتهكم والنكتة والفكاهة ، والعظة والعبرةوالحب والكره والاضطراب والاطمئنان ، الخوف والأمن ، السعادة والشقاء ، والخصب والجذب ، والحرب والسلم ، والحياة والموت »(2). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المجتمع الذي يحمل في تراثه هذا اللون من الأدب الشعبي هومجتمع يزخر بتراث عريق ، يبرز مستوى ذكائه وفكره ، حكمته وحريته في التعبير.

والتناقض الموجود في الأمثال يعكس دون شك مستوى الحرية والواقعية الاجتماعية ، التي أخذت قوتها من واقع الحياة الاجتماعية ، في صيغة مثل شعبي لخص التجربة الإنسانية ، لتصبح مشتركة بين جميع أفراد المجتمع ، وبالتالي« فالمثل فوق كونه خلاصة لتجارب إنسانية طويلة ، وفوق جماله اللفظي وبلاغته ، فهو صورة مباشرة لأحوال المجتمع المتداول فيه »(3).

إن الأمثال الشعبية تعد من بين أشكال الأدب الشعبي التي تعبر عن العقلية الشعبية للمجتمع ، تختزن في مدلولاتها صورا عن سلوكات البشر تجاه ذواتهم وتجاه الآخرين ، فالذاكرة الشعبية تقوم مقام الرقيب على سلوك الأفراد في

(1) أحمد أبو زيد وآخرون ، دراسات في الفولكلور ، دار الثقافة للطباعة ، القاهرة ، 1972 ، ص310.
(2) مرتاض عبد المالك ، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981، ص112.
(3) بن هدوقة عبد الحميد ، أمثال جزائرية ـ أمثال متداولة في قرية الحمراء ولاية برج بوعريريج ـ الجزائر ، 1992 ، ص13.

استعمالها وتداولها للأمثال ، وأيضا تحفظ مادة المثل الشعبي من الضياع والاندثارلتبقى جزءا من الهوية الثقافية الوطنية لأي مجتمع من المجتمعات مجسدة في هيئة جملة قصيرة أو حتى طويلة تحمل رموزا ودلالات عميقة عمق تجربة الأسلاف الذين ينقلون كل ماعاشوه إلى الخلف. الأمثال الشعبية تثبت التجارب التي يحملها بشكل واضح هذا الاتجاه ، ذلك لأنها سبقت وجود الأفراد الذين يتداولونها ، وتستمر بعدهم بوتيرة مختلفة لخاصيتها الجمالية والأدبية أولا ، ولما تحمله من معان ودلالات اجتماعية وثقافية عميقة ، تنفذ إلى فكر الإنسان ووعيه ، فتعكس مجالات الحياة اليومية في شكل موجز يدعو إلى التأمل والتفحص الدقيقين على مدى روعة هذا الشكل الأدبي المتميز.

وبهذا فان الأمثال الشعبية تعتبر كوصفات اجتماعية جاهزة تعالج مواقف الحياة الاجتماعية في صيغ مختصرة ، معبرة عن التجربة المشابهة للموقف الذي يسايرها ، وإذا كانت وصفات جاهزة فان استعمالها وتداولها يساهم في الحفاظ على هذا الكيان التراثي للمجتمع الذي يتبناها.

ثانيا : خصائص ومميزات المثل الشعبي

يمتاز المثل الشعبي كغيره من فنون الأدب الشعبي ، بمجموعة من الخصائص والمميزات ، وهي تشترك في أكثرها مع عناصر الأدب الشعبي الأخرى ، وهذه الخصائص هي:

* اللغة المستعملة في المثل ، فبما أن المثل ذو طابع شعبي ، فإن اللغة المعتمدة فيه هي لغة الحياة اليومية ، المستعملة والسائدة بين الشعب بمختلف فئاته ، ومن المعروف أن اللهجة العامية لاتخضع لقواعد ولا لضوابط لغوية ، وهذا ما ساعد الأمثال على سهولة التداول ، لأن العامية هي لغة البيت والشارع ، والمجتمع ، ولغة الأمي والمتعلم ، الغني والفقير ، أي هي لغة اللاحواجز.

* المثل الشعبي مجهول المؤلف ، وحتى وإن وجدنا نسبته فهي موضع شك ، فالأدب الشعبي عموما يتميز بالجماعية ، والشيء نفسه ينطبق على المثل ، فصاحبه الأصلي هو فرد من عامة الناس ، أطلق مثله ثم ذابت ذاتيته في جماعة مجتمعه ، ليبقى مثله سائرا وصاحبه مجهولا ، وحتى وإن استطعنا التعرف على المرحلة الزمنية التي قيل فيها ، أو عن المكان الذي أنتج فيها أول مرة حسب المضمون ، كالأمثال التي أنتجت في الفترة الاستعمارية ، فالذاكرة الشعبية لا تعطي الحق لمعرفة قائل المثل الشعبي.

* المثل الشعبي لايخضع لعملية التدوين أثناء نشأته الأولى ، إلا بعد أن

يستكمل نموه على أيدي الناس.

* المثل الشعبي صادق في تعبيره فهو ينقل حالة الفرد والجماعة بصدق ودون خوف من قوة الرئيس أو الحاكم أو المسؤول ، ولا من نقد النقاد والدارسين « فالمثل يحتوي على معنى يصيب التجربة والفكرة في الصميم »(1).

* معظم الأمثال الشعبية تقتضي نوعا من الإيجاز ، « بحيث يدل قليل الكلام فيه على الكثير ، فهو مكون من أقل قدر من الألفاظ ، وأكبر قدر من الدلالة »(2)، وتتميز بجودة المعنى والاختصار والتركيز ، فهي« ...أكثر ما تتسم من حيث مستواها بالإيقاع الخارجي التام أو الناقص ، ولكن هذا الإيقاع ثابت في الحالتين ، وثانيهما الاتصاف بالإيجاز والدقة... »(3). وقد استمدت هذه الميزة شكلها ومرونتها من اللهجة العامية ، لكونها منطوقة ، وبالتالي فهي لا تعتمد على قواعد الإعراب ، وتضبط كلماتها فقط بالطريقة التي تتوافق مع شكل إيقاع المثل وظروفه الاجتماعية.

* المثل الشعبي يمثل فلسفة الفرد والمجتمع في الحياة ، فهو خلاصة تجارب الشعب ، كما أنه يمثل مرآة لثقافة الأمة واتجاهاتها ونظرتها إلى الحياة ، فالأمثال تنقل لنا بصورة أمينة الحياة الاجتماعية للشعوب في فترات مختلفة ، كاشفة النقاب عن مكنونات الواقع الاجتماعي ، فهي أصدق أداة للتعبير عن حالة الفرد والجماعة.

* بما أن المثل الشعبي هو جزء من التراث الشعبي ، لذا فهي تقتضي في سيرها وتداولها التناقل شفويا بين أفراد المجتمع ، « وهي تبدو في المقام الأول جزءا لا يتجزأ من التراث الإنساني بوجه عام ، ولشعب بعينه بصفة خاصة ، حيث تضم في طياتها الخبرة الطويلة ، والتجربة العلمية الحسية ، والحكمة الشعبية ، وآداب السلوك ، وكذلك الأمثال تنقل من شفاه إلى شفاه عبر أجيال متعددة »(4).فالرواية الشفوية تعد خاصية أو ميزة أساسية لانتقال المثل الشعبي ، بل هو جزء من الرواية الشفوية ، والأدب الشعبي أيضا يدخل في هذا الجانب ، أي ينقل عن طريق الرواية الشفوية عامة ، معتمدا على اللغة المنطوقة ، التي

(1)إبراهيم نبيلة ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، مكتبة غريب ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ص 174.
(2) بدير حلمي، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث ، دار الوفاء لدنيا الطباعة ، الإسكندرية ،2002 ، ص32.
(3) مرتاض عبد المالك ، عناصر التراث الشعبي في « اللاز« دراسة في المعتقدات والأمثال الشعبية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1987 ، ص100.
(4) أبو الفتوح علي ، التحليل المقارن للأمثال الشعبية في اللغتين العربية والروسية ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، 1995 ، ص01.

تعارف المجتمع على فهم رموزها ومدلولاتها ، وتعد الذاكرة الناقل الأساسي ، لهذا الإبداع الشفوي ، واللغة الشفوية تتميز بالمرونة والسهولة ، ولا تعتمد على قواعد الإعراب وهي اللغة الأم التي يتعلمها الطفل ، ويتلقاها من أسرته ، ويتعامل بها في حياته اليومية.

* الأمثال ذات طابع شعبي ، متصلة بالحياة الاجتماعية ، فهي تمتاز بألفة شعبية لأنها نابعة من أوساطه ، نمت من صميم البيئة ، تبناها الشعب وحافظ عليها من عوامل الزوال والاندثار.« لاتشير الصفة(الشعبي) التي يتصف بها التراث إلى أنه نتاج وزاد من يسمون ب (الطبقات الشعبية) أو (البسطاء) ، وإنما تشير إلى أنه نتاج الشعب كله وزاده ، على اختلاف طبقاته ، وفئاته ، وبيئاته ، ومراحله التاريخية »(1). فالمثل الشعبي هو وليد التجربة الذاتية ، من إنتاج ، ثم ذابت التجربة الفردية في الجماعة ، لتصبح جماعية ومشتركة بين الناس ، تمس واقعهم ومعاناتهم ، أفراحهم وأتراحهم في إطار المجتمع الذي وافق عليها من خلال عملية التداول والتناقل.

* يحمل المثل الشعبي في طياته وظائف مختلفة ، أهمها الوظيفة التربوية التعليمية ، فهو يتميز بالطابع التعليمي ، حيث يقوم بعرض الفكرة أو الموقف ، ثم يترك المجال للغير مفتوحا ، سواء بتقبل النصيحة أو التوجيه والعمل بهما ، أو برفضهما.

* تتميز الأمثال بالإيقاع ، فمن العوامل الأساسية التي جعلت معظم الأمثال القديمة الموجزة تتماسك وتصمد أمام الزمن ، توفرها على مصادر إيقاعية تتجسد في الاعتدال والتناسب بين الأجزاء ، وفي التقديم والتأخير ، والتراكيب البلاغية والسجع والجناس ، فالإيقاع إذا ما وجد في المثل عمل على إظهاره أكثر من الكلام العادي ، والمتكلم عندما يعتمد على الأمثال في حديثه ، فإن السامع يتفطن إلى التعابير المثلية ، وذلك لتغير نبرة صوت المتكلم ، وهذا لما تتسم به من خصائص بلاغية وإيقاعية وتركيبية.وانطلاقا من كل هذا هناك تعريف قدمه الأستاذ« فريديريك زايلر » في مقدمة كتابه (علم الأمثال الألمانية) يشمل خصائص المثل الشعبي ، يقول بأنه : « القول الجاري على ألسنة الشعب ، الذي يتميز بطابع تعليمي وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المعروفة »(2).

يتبين من خلال هذه الخصائص أن المثل الشعبي يأتي في مقدمة أشكال التعبير الأدبية المعروفة ، لأنه يعبر عن الواقع الاجتماعي بكل تناقضاته

(1) سلام رفعت ، بحثا عن التراث العربي ـ نظرة نقدية منهجية ـ ، دار الفارابي، لبنان ،ط1، 1989 ، ص227.
(2) إبراهيم نبيلة ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص175.

وصراعاتهويكشف الكثير عن العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراده ، بل ويمتاز عن هذه الأشكال بخصائص دقيقة ، إنه الصورة الواقعية والحية التي تكشف أحوال المجتمعوهذا الأخير هو من أعاد خلق وإثراء المثل والحفاظ عليه في أبسط صوره المعروفة ، وهذا ماضمن له الديمومة والاستمرارية.

ثالثا ـ وظيفة الأمثال الشعبية :

يعد المثل الشعبي أكثر الأنواع الأدبية الشعبية انتشارا ، فهو يتداول ويستعمل بين فئات اجتماعية مختلفة ، نظرا لخصائصه ومميزاته التي يتمتع بها ، والإنسان في حياته اليومية وفي تعاملاته مع الآخرين ، يوظف الأمثال بكثرة ، إما لخصائصها الفنية وإما دعما لقوله وإقناعا لغيره بأهمية ما يقوله.والمجتمع لايسمح بتداول مثل ما ، إلا إذا كان موافقا لعاداته وتقاليده وأعرافه ودياناته ، فالمثل عبارة عن أداة ضابطة لتوجيه سلوك الأفراد وهذا بصورة اختيارية ، وليست بصورة إجبارية إلزامية.فطبيعة المثل الشعبي هي التي حددت وظيفته كأداة للتخاطب والتواصل ، فهو أداة تواصلية.

وفي العادة يأتي المثل الشعبي في ختام الحالة التي توافقه ، بنفيها أو تأكيدها ، فهو يحتوي على أحكام تقييمية ، حيث يبدي الرأي من الموقف ويعطي الصيغة المعارضة أو الموافقة بالسلب أو بالإيجاب ، والمثل الشعبي لايظهر دون حاجة إلى ذكره أو ضرورة لذلك ، وهذه الضرورة تمس الوظيفة التي يؤديها بالدرجة الأولى ، « على أن الأمثال إذا كانت لاتهدف إلى غرض تعليمي ، فإنها تهدف من خلال تلخيصها للتجارب الفردية إلى نقد الحياة ، وكثيرا ما يشعرنا المثل بنقص في عالم الأخلاق.وليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبي من عيوب أخلاقية »(1).

تتضمن الأمثال الشعبية عدة وظائف حسب الموضوع الذي تتناوله ، والذي يمس طبعا الإنسان وواقع حياته اليومية ، ومن بين أهم الوظائف التي يؤديها المثل الشعبي هي: الوظيفة الاتصاليةوالوظيفة الأخلاقية ، والوظيفة التربوية ، ...

1 ـ الوظيفة الاتصالية : المثل كغيره من فنون التعبير الأدبي هدفه الاتصال والتواصل بين الأفراد والمجتمعات ، وهذا التواصل يكون بنقل تجارب السابقين.وبما أن المثل يتسم بالإبداع الفني والجمالي كما أنه يعد أداة تواصلية جمالية وأيضا ترفيهية ، فهو يعتبر مصدرا من مصادر المعرفة والثقافة ، كما أن الأمثال تحفظ تجارب الشعوب من الزوال والاندثار ، وتسهم أيضا في معرفة

(1) إبراهيم نبيلة ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص179.

الثقافة التي تسود المجتمع.

2 ـ الوظيفة الأخلاقية :فالمثل هو بمثابة الضابط الاجتماعي والرقيب الذي يوجه سلوك الفرد ، وفق ماتمليه القيم الأخلاقية للجماعة ، سواء مع نفسه أو مع أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه « فالأمثال تراث يحتوي على ما لو أمكن إحكام تصويره ، شعرا أو نثرا ، تمثيلا ، أو قصصا ، لكان من خير الأدوات للضبط الاجتماعي الذي لابد منه لتنشئة الأفراد ، منذ طفولتهم ، تنشئة اجتماعية سليمة »(1).بمعنى أن المثل الشعبي يقدم تجربة جاهزة عن موقف ما ، أو هو يمثل خلاصة التجربة الإنسانية ، ويعكس المستوى الاجتماعي للمجتمع ، من خلال التعرض لبعض المواقف أو التصرفات التي يحاول المثل معالجتها في صيغة أدبية فنية ، فهو يحاول حماية عادات وتقاليد المجتمع من الزوال ، من خلال تكريس مثلهم العليا وأخلاقهم.والمثل غالبا ما يكون مرتبطا بقصة تشرح مغزاه ، وبهذا نستطيع أن نتعرف على الكثير من سمات المجتمع وخصائصه الاجتماعية ، « فالمثل هو الإطار الذي يحدد مجالات الحياة الإنسانية وقيمتها الأخلاقية ، ويحدد ما للإنسان فيها وما عليه ، حتى لايضل في متاهات الانحراف حيث أنها تعتبر من الوسائل الفعالة داخل المجتمع ، في توجيه الأفراد وتعريفهم بالقواعد السلوكية المستحبة التي يجب إتباعها ، والنواحي المنكرة التي يجب الابتعاد عنها ، باعتبار الأمثال الشعبية ممثلة للضمير إلى كل أمة في أرقى صورة بتمييزها بين الحق والباطل ، والخبيث والطيب ، والخطأ والصواب »(2). فالمثل يمثل إرثا ثقافيا زاخرا عن طريقه نستكشف الطابع الثقافي للمجتمع ، والوظيفة الأخلاقية التي يحويها تعد كمحدد لمجالات الحياة الإنسانية ، وقيم ومعايير المجتمع المقاومة لكل انحراف أخلاقي

3 ـ الوظيفة التربوية التعليمية:وهي تحمل نفس معنى الوظيفة الأخلاقية تقريبا ، لأنها تسعى إلى تهذيب النفس وتقويم الخلق ، وتعليم الفرد طرق وسبل العيش في ظل التجربة التي يتضمنها المثل ، فالأمثال تعد مدرسة يتعلم من خلالها الفرد السلوك الصحيح والاتجاه السليم الذي يسلكه في حياته ، فيكتسب تنشئة اجتماعية سليمة.« ولئن كانت التشريعات القانونية اتخذت مصدرا رسميا لتنظيم العلاقات الإنسانية فان الأمثال بدورها قد اتخذت مصدرا لتشريع العادات

(1) الساعاتي حسن ، حكمة لبنان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1980 ، ص26.
(2) جلاوجي عزالدين ، الأمثال الشعبية الجزائرية بسطيف ، مرجع سابق ، ص16.

الشعبيةوتشكيلها حسب الاحتياجات الاجتماعية »[1] ، فالأمثال بما أنها حكمة الشعب وفلسفته في الحياة فهي تسعى إلى تكريس مقومات الأمة وإلى غرس عاداته ومعتقداته في الأفراد ، فمنها يستخلصون الموعظة الحسنة كما يجدون المواساة فيها ، وتساعد قليلي التجارب وعديمي الخبرة بتوجيههم ، وهي منبر للكشف عن بعض التصرفات غير الأخلاقية بذمها ، ومن جهة أخرى محاولة إيجاد البديل عنها.

4 ـ الوظيفة الفنية:فالمثل فن أدبي له مكانته الخاصة بين فنون الأدب الشعبي ، يتميز بخصائص فنية ، أهلته للانتشار والشيوع بين أفراد المجتمع ، أكثر من الأنواع الأدبية الشعبية الأخرى ، فهو يتميز بإيجاز عبارته ، وبساطة تعبيره ، كونه انبثق ونشأ من عمق الشعب وثقافته وأصالته.

5 ـ الوظيفة الترفيهية: فبعض الأمثال تحمل الناس على الضحك والانشراح ، كونها صيغت في قالب جمالي فكاهي ، لكنها تحمل بعدا أخلاقيا ما ، فكمثال على ذلك نجد المثل القائل: « واش يخصك يا لعريان؟يخصني لخواتم يا سيدي » بمعنى أن الإنسان العاري والذي يكون لباسه رثا وقديما ، ولا يستر كامل جسمه ، فرغم وضعه المأساوي ، إلا أنه عندما سئل عن احتياجاته ، أجاب بأن الخواتم هي التي تنقصه ليتزين بها ، وهناك مثل آخر يحمل المعنى نفسه وهو« الشر والتفنطيز » فهذا المثل يحمل جانبا ترفيهيا فيه تسلية وضحك وأيضا له مغزى ، بالإضافة إلى الوظائف المذكورة توجد وظائف أخرى تؤديها الأمثال الشعبية ، حيث تمثلها التجارب المنطلقة من خلالها(الأرض ، الزرع ، السقي ، الحصاد...) ، « وهي أبدا تمثل خلاصة لتجارب إنسانية واقتصادية وزراعيةغايتها أن تعلم الإنسان العربي في الريف الجزائري ما ينبغي أن يتعلمه ، حتى لا يقع في فخ الارتجال والتهور وقصر النظر »[2]. فبعض الأمثال تعد كقوانين جاهزة تنظم المجتمع الزراعي.

ومن هنا يتبين أن للأمثال الشعبية عدة وظائف ولكل وظيفة أمثال تشرحها أوتتضمنها ، وبالتالي فتأثيرها كبير على الفرد وعلى المجتمع ، بما تحاول بثه وغرسه في أنفس الناس من أفكار ومعتقدات ومفاهيم عن الحياة وطبيعتها ، وكيف يمكن للفرد أن يعيش فيها بسلام ويعايشها أيضا ، فللأمثال دور كبير في الحياة ، لأنها تساهم في تعامل الناس وتفاعلهم مع بعضهم البعض وفق مصالح وأهداف مشتركة.

(1) شعلان إ براهيم أحمد ، الشعب المصري من أمثاله العامية ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1972، ص47.
(2) مرتاض عبد المالك ، الأمثال الشعبية الجزائرية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1982 ، ص11.

رابعا ـ الهدف من المثل

للمثل دور كبير فبالإضافة إلى الوظائف المذكورة سلفا التي يؤديها في حياة الفرد والمجتمع ، إلا أننا نجد أن مفهومه ودوره أوسع من كل هذاولما كانت تجارب الإنسان تشغله إلى حد كبير ، فإن الإنسان لا يعيش في عالمه الكبيربقدر ما يعيش في عوالمه الصغيرة ، أي في تجاربه.وكلما عاش الإنسان في هذه التجارب وأحس بوقعها على نفسه ، كان أشد ميلا للتعبير عنها وعن نتائجهافقد يحدث أن يفشل في أمر ما ، كان يتوقع نجاحه فيه ، فإذا شاء هذا الشخص أن يصف سوء مصيره وعجزه لشخص آخر يدرك موقفه تماما ، فإنه يعبر عن ذلك بكلمة« حظ » (1).

فالمثل هو وسيلة لنقل تجارب الفرد سواء كانت مفرحة أو محزنة ، فهذا التعبير عن موقفه يحيل إلى موقفين : إما إصراره على مشاركة الناس بأفراحه وهمومه واطلاعهم عليها ، وإما بهدف أخذ الغير العبرة منها ، فالمثل هو رصد للسلوك الإنساني في حالات ومواقف متغيرة ، فهو يهتم بالعلاقات الاجتماعية المتداخلة ، كما أنه يستعمل طريقة الإرشاد ، حيث يقوم بعرض المواقف ثم يترك الفرصة للفرد في الالتزام بذلك السلوك أو بتجاهله.« ومن هنا يمكن القول بأن المثل الشعبي ينسجم تمام الانسجام مع نظرية التربية المعاصرة التي تحاول أن توفق بين استعدادات الفرد ومتطلبات البيئة الاجتماعية المعقدة ، وعملية التوفيق في جوهرها تتلخص في وضع المرء أمام حقائق عليه أن يهتدي بنفسه إلى إدراك ماهو صالح ، وماهو طالح فيها » (2). فالهدف من المثل يبقى أولا وأخيرا محاولة تقويم سلوك الفرد للإنسان ، بتوجيهه الوجهة السليمة ، التي فيها الخير والسلام له ولأبناء مجتمعه.

وبالتالي فالمثل يحتل مكانة مرموقة بين أشكال الأدب الشعبي الأخرى ، فهو الأداة التعبيرية الأكثر تداولا بين الناس« إننا نعيش جزءا من مصائرنا في عالم الأمثال ، ولعل هذا يفسر استعمالنا الدائم للأمثال على عكس الأنواع الشعبية الأخرى... » (3)، فالأمثال تنبع من الشعب ، وهدفها هو التعبير عن واقعه ، وعن ظروف عيش السكان ، عن نسائه ورجاله ، عن مختلف المواقف الاجتماعية التي تحدث في الحياة ، ورغم بساطتها إلا أن لديها أهمية ومكانة متميزة ، تنفرد بها عن سائر أشكال التعبير الشعبي.

(1) إبراهيم نبيلة ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص 177.
(2) ابن الشيخالتلي ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص 181.
(3) إبراهيم نبيلة ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص147.

فالمثل الشعبي بما أنه نابع من عمق الشعب ، فهو يصور الحياة الاجتماعية ويرسي الأعراف والتقاليد ، لأنه يملي عليهم ما يأخذون ، ويلتزمون به وينبههم إلى ما يجب تركه والابتعاد عنه ، فهو يلعب دور الرقيب أو الضابط الاجتماعي ، الذي مهمته تقويم الاعوجاج ـ إن وجد ـ ومحاولة مساعدة الضال والخارج عن إطار الجماعة والعرف والتقاليد ، كما أن المثل يمثل عراقة الشعب وجذوره وأصوله ، أو هو بمثابة إرث حضاري تاريخي ، يروي عبر ثناياه عن أخلاق ومبادئ هذه الأمة ، المستمد من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. « وتبدو أهمية الأمثال والحكم أنها وسيلة تربوية لأن فيها التذكير والوعظ والحث والزجروتصوير المعاني »(1)، فالمثل عبارة عن تكريس للخلق الحميد ، كونه يعبر عن طبقات الشعب ، خاصة منها المحرومة والمحتاجة ، من الفقراء والمعوزين أو ذوي العاهات.يتحدث عن مختلف مراحل حياة الناس من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة ، كما يتحدث عن المرأة والرجل وعن حقوقهما والتزاماتهما ، وعن مختلف العلاقات أو المشاكل التي تنشأ بينهما. إن مكانة وأهمية المثل الشعبي نجدها في تعريفه المعمق لبعض فئات المجتمع كالمرأة مثلا ، وكيف يراها المجتمع ، فمكانة وأهمية المثل كما رأينا سابقا ، تصلح لأن تكون أرضية ، تدرس فيها أحوال المجتمع وأخلاقه ومبادئه وقيمه ، لأنها تعكس الواقع بما فيه من تناقضات.

وللمثل أهمية في المجال النفسي ، حيث يعتبر متنفسا عن الرغبات الإنسانية ، فالإنسان يمر في حياته بلحظات أليمة ، فيجد نفسه محبطا أو يائسا من الحياة ، أو فاقدا الأمل من ناسه ومجتمعه ، فنجد الأمثال الشعبية تساعده على إيجاد الحل للحالة التي هو عليها ، فالشخص يلجأ إليها بطريقة غير مقصودة ، كما يقلل من توتره الناتج عن شعوره بالخيانة أو بالفشل والإحباط.يقول الشيخ عبد الرحمان المجذوب في إحدى رباعياته:

« لاتخمم في ضيق الحال شف عند الله ماوسعها
الشدة تهـــزم الأرذال أما الرجال لاتقطعها »(2) .

بمعنى كل شيء بالنسبة إلى الله سهل لاصعوبة فيه ، لذلك لا داعي إلى اليأس والجبن ، فصبر المرء يظهر في الشدائد وأن أرباب الشجاعة والمروءة والهمة يقاسون الشدائد ونوائب الزمان ، لكنهم يصبرون ويتغلبون عليهابقوةإرادتهم

(1) الماوردي علي ، الأمثال والحكم ، ت/فؤاد عبد المنعم ، دار الوطن ، 1999 ، ص20.
(2) المجذوب عبد الرحمن ، القول المأثور ، تصنيف نور الدين عبد القادر ، المطبعة الثعالبية ، ص 08.

وشدة عزيمتهم.

كما أن للمثل الشعبي تأثيرا قويا على السامع ، فهو يجعل الأفراد ينصاعون كما تقتضي به قوة العرف والمعتقد الشعبي ، فتأثيره عليهم بهذه الطريقة يبرر ماله من مكانة وأهمية في الثقافة الشعبية ، إذ نجد هذا الشكل الفريد بطريقته التخييرية والإرشادية ، يساعد بشكل واسع على نشر الخلق القويم ، والتعامل مع المواقف المتجددة والمتغيرة بشكل سليم ، مع الحفاظ على العرف والعادات والتقاليد.

ومن كل ما سبق نستنتج أن المثل له دور وأهمية كبيرة في حياة الفرد والمجتمع ، «وكما كانت الأمثال فنا من الفنون الأدبية الشعبية الحية ، تعلقت بكل شيء ، وتناولت كل شيء يتصل بالحياة ، فتراهاتعالج الأخلاق والحكمة ، والعضة والتربية والتوجيه ، والسخرية والتهكم ، والنكتة ، والفكاهة ، والعبرة ، والحب والكره ، والاضطراب والاطمئنان ، والخوف والأمن ، والسعادة والشقاء ، والخصب والجدب ، والحرب والسلم ، والحياة والموت ، فكل ما يتصل بالحياة ، ويحوم حولها ، وينبع منها ، أو يصب فيها ، مجال فسيح لفن المثل ومضطرب عريض له»(1) ، إذا فالأمثال عالجت كل موضوع ، وتطرقت إليه ، « فقد ركزت الأمثال الشعبية بهذه الجهة على مبدأ العلاقات الاجتماعية فكان المثل فلسفة تشع أفكارا نيرة ، يسعى القائل من خلاله إلى تأسيس هرم العلاقات المتينة بين أفراد المجتمع.لقد كان رسالة تحمل أبعادا دلالية غاية في المثالية ، وبالتالي أسهم في تكتل الأفراد حتى غدا المثل دستورا منظما للناس في حياتهم»(2). وبالتالي فالمثل يمثل بابا مفتوحا بمصراعيه على مختلف المواقف التي يمر بها الفرد في حياته ، « إن لها فلسفة تقوم أساسا على التجربة المعاشة ، وهي أبدا تمثل خلاصة لتجارب إنسانية واقتصادية وزراعية: غايتها أن تعلم الإنسان العربي في الريف الجزائري ما ينبغي أن يتعلمه ، حتى لايقع في فخ الارتجال والتهور وقصر النظر.إن الحياة بما فيها عالم من التجارب التي منها المر ومنها الحلو ، منها القاسي العنيف ، ومنها اللين اللطيف ، ولكنها كلها تمثل سلسلة متصلة الحلقات بين الإنسان وواقعه ، والإنسان وظروفه التي تفرض عليه عيشا معينا»(3) .

ومن كل هذا تبرز أهمية ومكانة المثل في الحياة ، ومدى قدرته الكبيرة

(1) مرتاض عبد المالك ، العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر 1981ص112.

(2) ابن سالم عبد القادر ، الأدب الشعبي بمنطقة بشار ، منشورات التبيين الجاحظية ، سلسلة الدراسات ، الجزائر ، 1999 ، ص28.

(3) مرتاض عبد المالك ، الأمثال الشعبية الجزائرية ، مرجع سابق ص11.

على التعبير عن مختلف مواقف الحياة ، ومعالجتها ، أو إيجاد حلول بديلة لها.كل هذا يؤكد لنا على أولويته وأسبقيته في التعبير عن أشكال الأدب الشعبي الأخرى ، وهذا ماجعل له نوعا من العصمة والخلود والرسوخ في نفوس الناس ، كما كان له أثر عليهم ، وسلطان على آرائهم ، حتى أنهم يلجؤون إلى تداوله وترديده في مواقف مختلفة ، لحسم خلاف ، أو إثراء حوار ، أو إسكات عدو أو ثرثار...

رابعا : جمع الأمثال الشعبية في الجزائر: الأمثال الشعبية الجزائرية هي المرآة التي تعكس عادات كل مجتمع وتقاليده ، كما أنها تعكس مختلف المواقف والحوادث التي تجري في الحياة ، وهي تهدف إلى تقويم سلوك الأفراد بإعطائهم النصيحة أو الحل المناسب ، أو تعين اليائس من الحياة بمنحه الصبر ، كما أنها تشير إلى العوامل السلبية والإيجابية في المجتمع ، كونها تعكس ثقافته وأصالته ، وأخلاقه أيضا ، ونجد في المغرب العربي عدة باحثين لعبوا دورا كبيرا في التأسيس للدراسات الشعبية ، ونذكر منهم ، محمد بن أبي شنب من الجزائر ، الذي اشتهر بكتاب (أمثال جزائرية من الجزائر والمغرب) ، وعثمان العكاك من تونس واشتهر بكتابه (التقاليد والعادات الشعبية) ، ومحمد الفاسي من المغرب بكتابه(تاريخ الشعر الملحون)، فقد أسهم هؤلاء كثيرا في ترسيخ التراث الشعبي الوطني والمغاربي ، والمحافظة عليه.

وبالنظر إلى المجتمع الجزائري نجده يحتوي على عدد كبير من الأمثال الشعبية ، والسبب راجع إلى شساعة الجزائر ، وتعدد الثقافات فيها ، وبالعودة إلى تاريخها عن الأمثال الشعبية ، نجدها قد تقدمت أشواطا كبيرة في عملية دراستها وجمعها ، حيث نجد عدة دارسين قد ألفوا مصنفات عنها ، وكلهم يسعون إلى هدف واحد هو خدمة الثقافة الشعبية ، بمحاولة تسجيلها وقيدها ، لكي لاتندثر مع الزمن والاختلاف الوحيد في الدراسة هو طريقة المعالجة أو التبويب ، فهناك من قام بوضع مصنفه على أساس موضوعي ، بمعنى قسم الأمثال حسب مواضيعها ، كما أن هناك من قام بتقسيمها على أساس ترتيب أبجدي للحروف.

وقد ألفت كتب كثيرة من قبل ، تعنى بنصوص الثقافة الشعبية الجزائرية ، وضعها مجموعة من الدارسين الفرنسيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين إلا أن أبحاثهم تمثل رؤية غير صادقة عن تاريخ الأدب الشعبي الجزائري ، كونها كتبت بأقلام متشددين قساة استعماريين ، هدفهم هو الاحتلال والسيطرة ، وبالتالي فطريقة اختيارهم النصوص للترجمة تخضع لأطماعهم العسكرية في الاحتلال ، فهم يكتبون فقط ما يجدون به مبررات للهيمنة

على الجزائر ، لذلك كان طبيعيا أن تتصدى لهذه الحركة الاستعمارية بعض الأقلام المغاربية عامة والجزائرية خاصة ، بمحاولتهم الدفاع عن ثقافتهم الشعبية.

ومن بين مصنفات الأمثال الشعبية للأدباء الجزائريين نذكر:

1 ـ مصنف محمد بن أبي شنب: وهو علامة مشهور ، أسهم بقسط كبير في هذا المجال حيث كان يشغل أستاذا بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر ـ النواة الأولى لجامعة الجزائر ـ وقد وضع مصنفه في مستهل القرن العشرين ، الذي أسماه (أمثال جزائرية من الجزائر والمغرب) وهو لم يكتف فيه بذكر الأمثال السائرة في الجزائر فقط ، بل توسع فيه فذكر أيضا الأمثال الشائعة في العالم العربي والإسلامي ، وقد كان كتابه هذا روعة في البحث العلمي ، لأنه عمد إلى مقارنة الأمثال التي جمعها بما جمعه الباحثون المستشرقون ، وأيضا بعودته إلى الكتب التراثية القديمة المتعلقة بالأمثال.

أما بالنسبة لترتيب الأمثال« فالمؤلف لم يكتف بتصنيفها وفقا للحروف الأبجدية لتسهيل البحث ، بل قام بترجمتها مرفقة بالشروح بغرض بيان استعمالاتها ، والبحث بالنسبة لبعضها عما يعادلها خاصة بالفرنسية ، كما سجل الأماكن التي سمعها فيها مستعملة ، وأشار إلى ما يوازيها في الأمثال التي توجد في مصر وسوريا والجزيرة العربية ، وبين ما هو منها مستعار مباشرة أو بصفة غير مباشرة من القرءان ومن الحديث ومن المجاميع الشهيرة للأمثال الأدبية للميداني والعسكري»[1] ، وقد احتوى مصنف إبن شنب على 3127 مثل ، إضافة إلى70 حكمة ، مرتبة وفق التسلسل الأبجدي لحروفها الأولى ، مترجمة إلى اللغة الفرنسية ، وموثقة من حيث مصادرها ، عليه شرح وتعليق المصنف. وهو يعد أقدم كتاب جمعت فيه الأمثال الشعبية الجزائرية ، ولكن الشيء المؤسف حقا هو صعوبة العثور عليه في المكتبات الخارجية و حتى في مكتبات جامعاتنا ، رغم أهميته وقيمة الإرث الحضاري الذي يحمله.

2 ـ مصنف عبد الحميد بن هدوقة: عبد الحميد بن هدوقة من مواليد منطقة جبلية منعزلة هي قرية الحمراء التابعة لدائرة منصورة ولاية برج بوعريريج ، والتي يقول عنها في مقدمة مصنفه: « إن أمثالا متداولة في قرية جبلية منعزلة عن العالم ، لا تربطها أية وسيلة من وسائل المواصلات الحديثة به ، أمثالا نجدها متداولة في جهات أخرى ، من الجزائر ومتداولة أيضا بصيغ قريبة من صيغها في بلدان المغرب العربي ، وفي الأمثال العربية القديمة ، لهي خير تعبير عن هذه

(1) بورايو عبد الحميد ، الأدب الشعبي الجزائري ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2007 ص 70.

اللحمة المجتمعية والثقافية والحضارية للشعب الجزائري الواحد ، مهما تباعدت جهاته ، وامتدت أراضيه ، ولهي خير دليل كذلك على هذا التداخل للنسيج الثقافي والحضاري والمجتمعي بين مختلف الشعوب العربية في غربها وشرقها »[1] .

وأثناء تسجيله للأمثال الشعبية نجد أن إبن هدوقة قد اعتمد على ما تحفظه ذاكرته ، وكذلك على حفظة التراث الشعبي خاصة منها الأمثال في قريته ، ثم حاول شرحها حيث يقول على المنهج الذي اتبعه : « أوردت المثل ، وذكرت السياق الذي يقال فيه ، ولاحظت مدلوله الأخلاقي والاجتماعي كلما بدا لي ذلك ضروريا ، ثم أتيت بمثل أو أمثال مشابهة له ، أو أشعار ، تؤيد رؤية صاحب المثل ، وتبين اشتراكه مع غيره في تلك الرؤية ، خاتما الشرح والتعليق بالجانب اللغوي ، عندما أرى ذلك مناسبا ، أو ضروريا ، كما لم أغفل القصص المتعلقة بالأمثال ، سواء لأهميتها الاجتماعية والحضارية ، أم لطرافتها وأسلوبها إذا كانت من القصص القديمة.والغرض من ذلك هو إعطاء الكتاب صبغة أدبية ، تحبب القارئ في مطالعته ، وتمكنه من الدخول إلى عالم الأدب الشعبي والأدب العربي القديم »[2])وقد اعتمد في مصنفه على ترتيب الأمثال ترتيبا أبجديا ، بالعودة إلى الحرف الأول الأصلي للكلمة أو الفعل.ويعد عمله خطوة هامة في مجال الدراسات الشعبية من خلال الاعتناء بجمع الأمثال الشعبية ، حيث قام بجمع641مثل متبوعا بالشرح والتعليق عليه.

3 ـ مصنف قادة بوتارن (الأمثال الشعبية الجزائرية) : يحتوي هذا المصنف على 1010 مثل ، وقد ذكر فيه الأمثال الرائجة في الجنوب الغربي من الجزائر ، أما طريقته في التبويب فتختلف عن المصنفين السابقين ، فهي تعتمد على تصنيف الأمثال وفق الموضوعات ، ثم محاولة ترتيبها ألف بائيا داخل كل موضوع ، حيث يقول في مقدمة مصنفه : « إن الدراسات رتبت الأمثال ترتيبا ألف بائيا ، وقد أخذنا على أنفسنا أن نخرج عن هذه الطريق المعبدة إلى طريق أخرى ولم يكن ذلك هينا ، وهو أن نجمع هذه الأمثال بحسب الموضوعات ومراكز الاهتمام ، غير أن المثل يصعب أن يدرج في باب من الأبواب ، وأن يركن في مكان واحد ، لأنه قد ينتمي إلى أكثر من موضوع ، وبذلك تتداخلالموضوعات وتتكرر وقد تتعارض أحيانا ، وقد قال الكاتب الفرنسي ميسي أنه: « مامن مثل إلا وله مثل آخر يناقضه » ، ومهما كان فإننا بذلنا قصار جهدنا في حصر هذه الأمثال وإحلال كل مثل محله من المجموعة حتى تسهل قراءتها والرجوع إليها على أن الترتيب

(1) ابن هدوقةعبد الحميد ، أمثال جزائرية ، مرجع سابق ، ص08.
(2) ابن هدوقةعبد الحميد ، أمثال جزائرية ، ، مرجع سابق ، ص09.

الألف بائي قد عملنا به داخل كل موضوع »[1] .

وقد رتب الأمثال في ستة أجزاء ، يحتوي كل جزء على مجموعة أبواب وهي كالآتي:

الجزء الأول : بعنوان الحياة ونواميسها ، ويضم الأبواب التالية: 1 ـ القضاء والقدر .2 ـ تصاريف الدهر والعناية الإلهية . 3 ـ الحيرة والشك والقلق.4 ـ المظاهر الخداعة .5 ـ الزمان والصبر.

الجزء الثاني : ويحمل عنوان العلاقات الاجتماعية ، ويضم الأبواب التالية

1 ـ شريعة الأقوياء .2 ـ الوفاء . 3 ـ الصداقة . 4 ـ الفعالية.5 ـ اليقظة والحذر واللامبالاة . 6 ـ عرفان الجميل ونكرانه.

الجزء الثالث : ويحمل عنوان في السلوك ويضم الأبواب التالية: 1 ـ التربية والعادات والتقاليد .2 ـ عزة النفس .3ـ الجود والاستقامة .4 ـ الحكمة .

5- العقل السليم.6 ـ آداب السلوى واللياقة.

الجزء الرابع : ويحمل عنوان العائلة ، ويضم الأبواب التالية: 1 ـ المرأة.

2 ـ الزواج.3 ـ الورثة.4 ـ علاقة الآباء بالأبناء.5 ـ الدعاء بالخيروالشر.

الجزء الخامس : ويحمل عنوان الإنسان« محاسن ومساوئ ، ويضم الأبواب التالية: 1 ـ الإحساس بالمسؤولية والأهلية. 2 ـ المحاسن.3 ـ المساوئ.

الجزء السادس:ويحمل عنوان السخرية والدعابة والتهكم وهو غير مقسم إلى أبواب.فهذه الطريقة تبدو صعبة بعض الشيء ، لأن المواضيع قد تتشابك أحيانا،فيصعب تفريقها وتوزيعها حسب الموضوع الذي تشير إليه.وقد اعتنى قادة بوتارن بشرح المثل شرحا موجزا ، والتعليق عليه بغية توضيح مبتغاه.ويبقى هذا المصنف عملا كبيرا يجمع المثل الشعبي بين طياته.

4 ـ مصنف رابح خدوسي: الذي أسماه ب (موسوعة الجزائر في الأمثال الشعبية) حيث جمع فيه المؤلف الأمثال الجزائرية من مختلف المناطق ، وقدرت ب3000 مثل دون شرح ولاتعليق ، وقد اعتمد على الترتيب الأبجدي في التسجيل وهو بحق يعد موسوعة لحفظ الذاكرة الشعبية الجزائريةمن الاندثار.

5 ـ مصنف عزالدين جلاوجي : الذي أسماه (أمثال جزائرية بسطيف) حيث جمع فيه ما يقارب327 مثلا متناقلا بمنطقة سطيف ، مرتبة ترتيبا أبجديامع

(1) بوتارن قادة ، الأمثال الشعبية الجزائرية ـ بالأمثال يتضح المقال ـ ترجمة عبد الرحمن حاج صالح ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1987 ، ص5 ـ 6.

شرحها وإرفاقها ببعض القصص التي تشرحها ، كما نجد في القسم الأول منها دراسة مبسطة عن تعريف المثل ووظيفته وخصائصه ومميزاته.

6 ـ مصنف باية عايدة: وهو بعنوان(المثل الشعبي فكر وفن ـ عنابة ـ) وهي شبه دراسة قامت بها باية عايدة من منطقة عنابة ، شملت الدراسة 320 مثل ، وهي تحمل بعض الجوانب المتعلقة بالمثل الشعبي كشكل أدبي ، وتعد شبه دراسة اجتماعية وأدبية ركزت على مضمون الأمثال ودلالاتها ، وكذلك على شكليات المثل وجمالياته (أي المعنى والمبنى) ، وإضافة إلى هذه الأعمال ، التي تعد كبدايات لجمع المثل الشعبي الجزائري ، ظهرت أسماء لامعة سعت جاهدة إلى إحياء التراث الشعبي بمختلف أجناسه ، من خلال بعثه أمثال الدكتور التلي بن الشيخ ، وعبد المالك مرتاض وعبد الحميد بورايو وغيرهم.

❖ . الخاتمة

تعد الأمثال الشعبية أكثر أنواع الأدب الشعبي قدرة على حفظ وحمل وترجمة أفكار وذهنيات أفراد المجتمع ، وكذا عاداته وتقاليده وأعرافه ومعتقداته الإجتماعية ، بمعنى أنها تعد وعاءا تصب فيه ثقافة المجتمع الذي أنتجها ، وحافظ عليها بالتداول والتناقل مشافهة ، جيلا بعد جيل ، فالمثل الشعبي يعبر عن فلسفة المجتمع وأحلامه وآماله في الحياة.

فهو بهذا يحتل مكانة بين أشكال الأدب الأخرى ، لأنه يأتي في مقدمتها ، فهو الأقدر على تصوير الحياة الاجتماعية وما يدور فيها من علاقات وتعاملات وأحداث وغيرها.وبالتالي يتميز بخصائص ومزايا أهلته للشيوع والتداول بين الأوساط الشعبية ، كالإيجاز وهذا ما ساعده على التناقل ، فهو يعبر عن واقع المجتمع ويرسي الأعراف والتقاليد ، ويمثل هذا الجانب أحد أهم الوظائف التي يقوم بها المثل ، إضافة إلى جملة أخرى من الوظائف التي يؤديها المثل ، كما أنه يقوم بدور هام في الحياة ، ويؤدي إلى أقوى أنواع التأثير على السلوك الإنساني.

ونظرا للمكانة التي يحملها المثل فقد سعى عدة أدباء إلى جمع هذا الموروث الثقافي في مصنفات ، أهمها مصنف ابن أبي شنب ، ومصنف قادة بوتارن ، ومصنف عبد الحميد بن هدوقة....